شهرة القصيدة العربية القديمة وأسبابها

الدكتور عبد الكريم محمد حسين*

الملخص

لسير القصيدة في الناس أسباب تتعلق بمزايا القصيدة (شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، وخفتها على ألسنة الناس..) وأسباب تعود إلى مبدعها وشهرته، وأسباب أخرى تعود إلى مناسبتها. فشهرة القصيدة تتعلق بخصائصها لا (الوضوح والغموض، الخفة والثقل لحفظها.. وجاذبيتها) أولاً، وبمكانة قائلها ثانياً، وبمناسبة إبداعها(موقعة تاريخية، ثناء على شخصية مهمة..) ثالثاً.. والغرض من ذلك تفسير هذه الظاهرة تفسيراً عقلياً يقوم على الاستنباط من الخبر النقلي.

لا ريب في أن للقصائد شهرةً في الحياة الأدبية العربية؛ لأسباب تتصل بها بنيةً فنيةً، وحقيقةً ماديةً تسعى بها بين الناس، أو لشهرةِ صاحبها أو غرابة موضوعها أو مناسبتها، أو علو رتبة المقصود بها، فهي تمتعهم في حركتها وتداولها، ومعناها ومبناها، ألم يقل المسيب بن علس في الجاهلية1 [من الكامل]:

فَلَأُهْدِيَنَّ مَعَ الرِياحِ قَصيدَةً مِنّي مُغَلغَلَةً إِلى القَعقاعِ

تَرِدُ المِياهَ فَما تَزالُ غَريبَةً في القَومِ بَينَ تَمَثُّلٍ وَسَماعِ

فالقصيدة رسالة من الشاعر ترحل إلى القعقاع من مكان بعيدٍ، تحملها الرياح لخفتها، وهي مقيدة بإحكام لا يضيع منها شيء، ولا يهرب من قيودها(الوزن والقافية

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق

1 – المفضليات: 62

وشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته) شيء، سواء أكانت خاصة أم عامة؟ فهي تحمل إلى الناس حكمةً هي ضالتهم التي يبحثون عنها؛ ليجعلوها مثلاً لأحوالهم المقاربة أو المطابقة، لوقوعها موقع الدواء من علة الداء أو موقع الصفة من الموصوف من جهة الافتقار إليها، وتُحقِّقُ متعةً في سماعها لنظامها في صورها ومشاهدها، وغرابةِ طريقة بنائها وأدائها ترد موارد الماء يحملها الرواة تلفت انتباه الناظرين إليها من المحيطين بالماء لتفردها أو لظهور وسم صاحبها عليها لكل ذي بصيرة.

فهذه أسباب من أسباب سيرورة القصيدة في الناس الساعية إلى شهرتها وانتشارها كما يراها المسيب أو كما تراءت من وراء نسج بيتيها.

فإذا كانت القصيدة المهمة تتمتع بهذه السمات فذلك نفسه يعد مسوغاً لدراسة المعنى اللغوي للشهرة، والبحث عن أسباب شهرتها في الأزمنة المختلفة من غير استقصاء لها في الأعصر كلها، ولا ترتيب لها وفق الحقب التاريخية؛ لأن الدراسة تبحث في أسباب شهرة القصائد، وتنتقل بها من العام إلى الخاص، ومن المجمل إلى المفصل، وتجعل الفكرة مقدمة على الزمن من غير إهمال له. فهو قد يتراءى من وفاة قائل الحكم النقدي أو شاعره أو شارحه من غير أن يكون رأساً في تكوين فقرات المقالة، والكشف عن السبب يكون من افتراض أن سبب الشهرة يأتي صريحاً في الكلام أو مصاحباً لمصطلح الشهرة، فيذكر معه على جهة العطف على الظاهرة التي تعني المغايرة أصلاً مما يكون من باب عطف جزءٍ على كلٍّ أو عطف وصف على موصوف، وربما تضيف وجهاً آخر–قد يبدو ضعيفاً لبعض أهل الصنعة[1]– وهو أنهم ربما يعطفون بالواو التي هي بمعنى حرف التعليل أي السبب، فجُعِلَ ما عطف على الشهرة سبباً من أسبابها، وإلا فإن البحث عن أسباب الشهرة سيبقى مجملاً لا يُفتَحُ له نافذةُ تفصيلٍ لدارس أصيل. فهذا أصل من أصول منهج المعالجة للمسألة أو افتراضٌ ينبغي التسليم به على أنه لا يقبل الجدل.

1 – انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: 499/1

المعنى اللغوي:

للمعنى اللغوي وظيفة إيضاح المفهوم لو كان غامضاً، وتحديد بؤرة الدلالة الاصطلاحية التواضعية بين أهل العلم النقدي لو كان المصطلح محدداً في معاجم العربية لكن الأمر معدود في بديهة القول، والكلام في البدهيات يعد من الصِّعابِ المرهقات؛ لأن الشهرة يحتج بها على أنها أصل يقاس عليه لثبوته، ولأنه كالمسلَّمات لا يقبل الجدل ولا المناقشات. ويحتج به أيضاً؛ لأنه من توافق الجمهور، لكن الخطوات العملية تقتضي كسر طوق الألفة، والإفادة مما جاء في المعاجم لعله يوضح غامضاً من المفهوم أو يفتح طريقاً إلى مجهول؛ ليكون من باب المعلوم، فليست الصورة شكلية توجبها المنهجية العلمية بل تقتضي وجودها الحركة نحو فتح الباب لتأصيل المفهوم من الزاوية النقدية.

ولا ينبغي الوقوف على المادة (شهر) في أبعادها كلها لإظهار علاقتها بشهرة القصائد في الناس وظهورها كظهور الهلال أو البدر أو الشمس أو الجبال، وإشهار القصائد شهرة ما تقدم، ولا ريب في أن شهرتها مختلفة باختلاف أوطانها وأزمانها وأصحابها، وطبقاتها، لكن مما يتخير من المعاني اللغوية ما قاله الزَّبيدي (– 1205هـ):

((والشَّهيرُ والمَشْهُورُ: المَعْروف، المكان المَذْكُور، يقال: رجلٌ شَهِيرٌ ومَشْهُورٌ، قال ثعْلبٌ[1]: ومنه قولُ عُمَرَ بن الخَطّاب رضي الله عنه: "إذا قدِمْتُم عليْنَا شَهَرْنا أحْسَنَكُم اسْماً، فإذا رَأيْناكُم شَهَرْنا أحْسَنَكُم وَجْهاً، فإذا بلَوْناكُم كان الاخْتيارُ." والشَّهِيرُ: النَّبيهُ، ذكره الصاغانيّ. والشَّهْرُ: العالِمُ، جَمْعُه شُهُورٌ))[2]

فالشهرة تبرز المكانة وتُشيع الذكرَ للمشهور من القصيد كالمشهور من الناس أو الأماكن أو الأحكام، وثمة شهرة تتبع من السماع دون العيان، فيكون الاستحسان

1 – انظر نص كلام عمر –رضي الله عنه–في : مجالس ثعلب: 2/ 530

2 – تاج العروس من جواهر القاموس: 12/ 263

للأسماء الحسنة لقول العرب: لكل مسمى من اسمه نصيب1 فإن انتقل الأمر من السماع إلى العيان فإن الاستحسان سينتقل من الصفات إلى الصور والهيئات، وسيكون ثمة استحسان آخر ليس من الضروري أن يأتي مطابقاً الأول، ثم يعقب ذلك النظر إلى اختيار أهل الصور، فيدفع عن الاستحسان بالاختيار ما كان مستحسناً بالصورة؛ لأن اختيار المرء دال عليه، ثم كلامهم يكشف عن عقولهم، ومكنون صدورهم، ثم أعمالهم تكشف عن جواهر معادنهم.

مما تقدم يتبين أن الشهرة تتبع من الغرابة في طريقة الأداء، والدهشة الحاصلة من مفاضلة الأسماء الدالة على الصفات بمراقبة الصلة بين تسمية الشيء وصورته، والحقيقة الظاهرة بين صورته واختياره الدال على عقليته وميله، والحكمة التي توجز بمثل، والمتعة القائمة بأداء. فهل كانت الأحكام بشهرة القصائد مبنية على ذلك الفضاء المدرك من بعض ما جاد به المعجم العربي أو أن هناك أسباباً أخر ستكشف عنها الدراسة فيما يأتي؟ ذلك أن سياق الأخبار النقدية سيحمل إشارة إلى أسباب الشهرة تصريحاً تارة أو تلميحاً تارة أخرى.

الشهرة والاختيار:

الاختيار حذف واصطفاء يدل على ميل صاحبه وعقليته وذوقه لكن هل كل ما يتخيره بعض العلماء يكتب له الشهرة؟ أليس في الاختيارات طبقات من القصائد لا تستوي في قيمتها الفنية كما لا تستوي في مذاهب شعرائها الإبداعية، ولا تستوي شهرتها كما لا تستوي شهرة أصحابها؟ فلا ريب أنها متفاوتة في الحسن لقول الخطيب التبريزي(-502هـ): ((ومن أجود ما اختاروه من القصائد المفضليات، ومن المقطعات الحماسة))2

فقوله: (أجود) يعني التفاوت فيما بين الاختيارات في الجودة(صنعة معانيها من نظم

1 – الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر العارف بالله العلامة محيى الدين بن عربي(-628هـ): 193/2

2 – شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، بيروت-عالم الكتب، [د.ت]: 3/1

مبانيها) على اشتراكها في الصفة لكنها مختلفة في درجاتها، فبعضها فوق بعضٍ أو بعضها دون بعضٍ، فقد تشهر بعض القصائد المتخيرة دون بعضٍ لسببٍ معلوم أو مجهول.

والاشتهار مختلف في سعته كاختلاف شهرة الأشعار المتخيرة، فَشُهرَ من الاختيارات عند أهل العلم المفضليات والأصمعيات، ولعل سواهما تخير خيراً مما تخير كل منهما، فلم تكتب لاختيارات غيرهما الشهرة والذيوع التي لهما بين الباحثين قديماً وحديثاً. فكأن هناك حظوظاً للاختيارات تضاف إلى جودتها أو حسنها. وليس من شأن هذه المقالة البحث في أصول الاختيار التي يبنى عليها بل المطلوبُ أصول الاشتهار التي تتوفر لنص فيصبح مشهوراً، والشهرة والاختيار على ما بينهما من تداخل مختلفان، فقد يكون الاختيار شرطاً للاشتهار في نصوص، وقد لا يكون شرطاً في نصوص أُخَر.

فالنص يدعو إلى النظر في الاختيارات بنوعيها: اختيار القصائد كالمفضليات والأصمعيات، واختيار المقطعات كحماسة أبي تمام. ولما كان محالاً أن يقف الدارس في مقالة على المواقف النقدية من القصائد كلها تخير عينة من اختيار القصائد وأخرى من اختيار المقطعات مما يقترن فيها الاختيار والشهرة.

أما اختيار القصائد فقصيدة الأسود بن يعفر الدالية التي قال فيها أبو الفرج الأصفهاني: ((وقصيدته الدالية المشهورة1[من الكامل]:

نـــام الخلـــيُّ ومـــا أحِـــسُّ رُقـــادي والهـــمُّ محتَضـــرٌ[2] لـــديَّ وِســـادي

معدودةٌ من مختار أشعار العرب وحكمها، مفضلية3 مأثورةٌ.))4 فهي مشهورة –

1 – كتاب الاختيارين المفضليات والأصمعيات: 558

2 – محتضر: حاضر

3 – المفضليات: 216

4 – الأغاني: 15/13

ربما– أكثر من صاحبها، وهي من مختار الشعر تخيرها المفضل الضبي؛ لأنها معدودة من اختيار العلماء قبله، ولأنها تحمل حكماً تُنَزَّلُ منزلةَ الأمثال، وهي مجعولة في القصائد التي تجعلها العرب من جياد قصائدها، وبذلك تقوم أسباب شهرتها: جودة في معانيها وحسناً في طرق بناء مبانيها، واختياره يؤكد ذلك، وبها دواء للنفس يسمى حكمة، أو إيقاعاً للمعاني مواقعها من مقتضى الحال..

وأما ما جاء في نقد بعض مقطعات الحماسة فقول الآمدي في اختيار أبي تمام نصاً من قصيدة للحارث بن وعلة: ((الشاعر المشهور صاحب القصيدة المختارة1[من الكامل]:

لِمَنِ الدِّيارُ بِجَانِبِ الرَّضْمِ فمدافعِ[2] التِّرباعِ فالرّحمِ

يقول فيها الأبيات التي اختارها أبو تمام في الحماسة3:

قومي هُمُ قَتَلُوا أُمَيمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيتُ يُصِيبُنِي سَهمِي))4

فهذه قطعة تخيرها أبو تمام من قصيدة حدد الآمدي أولها وبيتاً من اختيار أبي تمام منها، وجعلها مختارة من اختيارات الحماسة التي يقع عليها العام من الأحكام النقدية الخاصة بالحماسة من جهة أنها من جيد الشعر إضافة إلى شهرة مؤلفها، فكأنما شهر بسببها، وربما شهرت بشهرته، فاستوى أن تكون مشهورة بشهرة مبدعها أو يكون مبدعها شهر بها.

مما تقدم تبينت العلاقة بين الاختيار والجودة وعلاقة كل منهما بشهرة القصيدة.

الشهرة والاستحسان:

هل تعود شهرة القصيدة حقاً إلى استحسانها؟ وهل هذا الشرط حاضرٌ لكل اشتهار؟

---

1 – كتاب الاختيارين: 384 بخلاف في رواية البيت الأول

2 – أسماء مواضع، والرَّضم : الحجارة

3 – شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي(–421هـ) : 1/ 204

4 – المؤتلف والمختلف، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي: 278

وهل الاستحسان درجة واحدة أو درجات مختلفة بدليل أن العرب تقول: هذا حسن وذاك أحسن؟ لا بد من استحسان لجهة من جهات الإبداع(المبدع، المناسبة، الموضوع، النص نفسه...) يدل على ذلك ما أورده أبو الفرج الجريري (– 390هـ) بقوله: ((قال: وحُدِّثتُ عن ابن أبي عدي، قال: سمعت ذا الرمة يقول: بلغت نصف عمر الهرم أربعين سنة، وقال ذو الرمة1[من الطويل]:

عَلى حِينَ رَاهَقْتُ الثَّلاثِينَ وَارْعَوَتْ لِدَاتِي وَكَادَ الحِلمُ بِالجَهلِ يَرجَحُ

إِذَا خَطَرَتْ مِنْ ذِكرِ مَيَّةَ خَطرَةٌ عَلَى القَلْبِ كَادَتْ فِي فؤادِكَ تَجرَحُ

تَصرَّفُ أَهواءُ القُلوبِ وَلا أَرَى نَصِيبَكِ مِن قَلبِي لِغَيرِكِ يُمنَحُ

أرى الحُبَّ بِالهِجرانِ يُمحَى فَيَمَّحِي وَحُبُّكَ مَيَّا يَستَجِدُّ ويَربَحُ

وَلَمَّا شَكَوتُ الحُبَّ كَيما تُثِيبَنِي بِوَجدِيَ قَالتْ إِنَّما أَنتَ تَمزَحُ

بِعَادًا وَإِدلالاً عَلَيَّ وَقَدْ رَأَتْ ضَمِيرَ الهوى قَدْ كَادَ بِالجِسمِ يَبرَحُ

لَئِنْ كانَتِ الدُّنيا عَلِيَّ كَمَا أَرَى تَبَارِيحَ مِنْ ذِكرَاكِ لَلْموتُ أَروَحُ

ويروى "تباريح من ميٍّ فللموتُ أروحُ"[2]قال القاضي: وهذه القصيدة من قصائد ذي الرمة الطوال المشهورة المستحسنة وأولها3[من الطويل]:

أَمَنزِلَتَي مَيٍّ سلامٌ عَليكُما على النَّأيِ والنَّائِي يَوَدُّ ويَنصَحُ

ومنها4:

1 – ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي: 2/ 1192، والأبيات مشروح معانيها في الديوان.

2 – هذه رواية المطبوع من ديوان ذي الرمة: 1212/2

3 – ديوان ذي الرمة : 2/ 1190

4 – ديوان ذي الرمة: 2/ 1197

ذَكَرْتُـــكِ إِذْ مَـــرَّتْ بِنـــا أُمُّ شَـــادِنٍ أَمَـــامَ الْمَطايـــا تَشْـــرَئِبُّ وَتَسْـــنَحُ
مِـــنَ الْمُؤْلِفـــاتِ الرَّمـــلَ أَدمـــاءُ حُـــرَّةٌ شُـعَاعُ الضُّـحَى فِـي مَتنِهـا يَتَوَضَّـحُ
رَأَتْنـــا كَأَنَّـــا عَامِـــدُون لِصَـــيدِها ضُـــحىً فَهْـــيَ تَـــدنو تَـــارةً وَتَزَحْـــزَحُ
هِـــيَ الشِّـــبْهُ أعطافـــاً وَجِيـــداً وَمُقلَـــةً وَمَيَّـــةُ أَبهـــى بَعـــدُ مِنهـــا وَأَملَـــحُ

وهذه من أحسن الحائيات التي أتت على هذا الروي))[1]

فكأنه يجعل استحسانها سبباً لشهرتها، أو قل: إنه يجمع لها صفتي الشهرة والحسن معاً، وحسنها قياساً بذوات الحاء مما كان على حرف رويها لا بغير ذلك، من غير أن يوضح أسباب الحسن في القصيدة، لكنه اجتلب أبياتاً منها ليقدم الدليل بالنص نفسه، ويدع للمتلقي أن يصل بتذوقه وعلمه إلى حقيقة ما وجده هو بذوقه وعلمه، ظاناً أن الناس يرون النص من حيث يراه، ويجدون من النص نفسه ما يجده فيه، فقدم النص، وألغى مناقشة الحكم على طريقة المتقدمين في الاتكاء على حسن الظن بالمتلقي وفهمه، ووضوح الأمر ببصائرهم.

الشهرة ولذة القصيدة:

لعل حسن القصيدة في صياغتها ومنهج بنائها، وطرق عرض معانيها بالتلميح أو التلويح أو التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو الكناية أو ما شئت من جهات المحسنات المعنوية أو المحسنات اللفظية كل ذلك مما يجعلها تستحسن لحواس المتلقي سمعه وبصره وذوقه والشم واللمس الذي تجتمع فيه معطيات الحواس الخمس، ومما جاء في الأخبار يومئ إلى أن الاستحسان الموصل إلى المتعة الجمالية كان سبباً من أسباب الشهرة، قول المحبي (– 1111هـ) في قصيدة فتح الله بن النحاس الحلبي(–1052هـ): ((وإلى ذلك أشار فتح الله بن النحاس في قصيدته المشهورة التي مدحه بها بقوله[2] [من

1 – الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: 2/ 192

2 – ديوان فتح الله بن النحاس: 112

الرمل]:

وَإِذَا قِيـــلَ ابـــنُ فَـــرُّوخٍ أَتَـــى سَـــقَطُوا لَـــو أَنَّ ذَاك القـــولَ مَـــزْحُ

وهذه القصيدة من أحسن محاسن[1] الشعر وأعذبه ومطلعها2:

بَـاتَ سَـاجِي الطَّـرفِ والشَّـوقُ يُلِـح والـدُّجى إنْ يَمـضِ جُـنحٌ يَـأتِ جُـنْحُ

وغزلها مشهور متداول فلهذا تركته. وأما مديحها فمنه قوله في وصفه3:

بَطَـلٌ لَـو شَـاءَ تَمزيـقَ الـدُّجى لَأَتَـاهُ مِـن عَمُـودِ الصُّـبحِ رُمـحُ

كَـم سُـطُورٍ بالقَنَـا يَكتُبُهـا وَسُـطورٍ بِلِسَـانِ السَّـيفِ يَمحُـو

بِـأبي أفـدي أميـري إنـه صَادقُ الطَّعنِ جَريءُ القَلبِ سَمْحُ))4

فقد حكم أن القصيدة مشهورة ذائعة في الناس يتناقلها العلماء في مجالسهم كما يتناقل محبو الشعر غزلها في مجالس لهوهم وودهم، وهي معدودة من أحسن محاسن الشعر من جهة جمالها، وهي من أعذب الشعر من جهة متعة متلقيها بها أو من جهة إحداث المتعة الجمالية، فجعلها كالماء استساغة وجرياناً، فحذف الماء، وجعل العذوبة دالة عليه، فكأنه يجعل حسنها ومتعتها الجمالية سبباً لشهرتها. فثمة علاقة بين شهرة القصيدة وجمالها أو حسنها، كما كانت هناك علاقة بين جودة معاني القصيدة وشهرتها، على ما بين الجودة والحسن من اجتماع وافتراق.

المعلقات والشهرة:

تعليق القصائد ضرب من الاختيار الخاص بهيئة عرض القصيدة المكتوبة أو حفظها

1 – هذه في الأصل (المحاسن) والتنكير أشهر في الإضافة، والمشتق لو عرف بالألف واللام بقي برتبة النكرة.. بزيادة تخصيصه

2 – ديوان فتح الله بن النحاس: 111

3 – ديوان فتح الله بن النحاس: 112

4 –خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي: 108/4

لتحضر عند الحاجة إليها. ولعل تعليق القصائد1على الكعبة أو في خزائن ملوك العرب يعد دالاً على اختيارها دون سواها على جهة من جهات الاستحسان، وفي تعليقها إشارة إلى تعظيم شأنها، وعرضها وقت الحاجة، فكأنها كنوز تحفظ في خزائن الملك كالتحف والهدايا القيمة، وكأنها مقدسة إذ تعرض على جدران الكعبة؛ فتشهر باستمرار زيارة الزوار لها. وعلى أي وجه حملت صفة التعليق فقد كانت تلك اقصائد موضع نظر العلماء واهتمامهم فقد قال ابن رشيق القيرواني: ((وأما أصحاب الواحدة فطرفة2 أولهم عند الجمحي3، وهو الحكم الصواب. ومنهم عنترة4، والحارث بن حلِّزة5، وعمرو بن كلثوم6 من أصحاب المعلقات المشهورات...))7

فلكل واحد من هؤلاء الشعراء الجاهليين معلقة من المعلقات التي جمعت اختيار القصيدة والتعليق، وفي الاختيار قبولٌ دُونَ رَدٍّ، واستحسانٌ دونَ صَدٍّ، وشهرة تحصلت من اجتماع هاتين الصفتين صفة الاختيار المتضمنة معنى الاستجادة والاستحسان، وصفة التعليق المتضمنة علو القيمة وتقديس الفن كتقديس الأماكن. فكأن شهرة هذه القصائد نبعت من هاتين الجهتين.

وكل واحد من هؤلاء الشعراء الأربعة يعد من أصحاب الواحدة التي يعتد النقاد بجودتها وشهرتها على ألسنة الرواة بين الناس، ولعل جودتها كانت سببَ شهرتِها دون سائر أشعار كل شاعر منهم، وهم لا يريدون بقولهم: (من أصحاب الواحدة) أن ليس

1 – انظر: المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ: 1/ 27–31

2 – انظر: شرح القصائد العشر: 95

3 – انظر: طبقات فحول الشعراء: 1/ 138

4 – انظر: ديوان عنترة: 182

5 –شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 432

6 – انظر: ديوان عمرو بن كلثوم: 75

7 – العمدة في صناعة الشعر ونقده: 163/1

للشاعر شعر سوى هذه القصيدة بل يجعلونها من جيد أشعارهم مما يستحق العَدَّ والحسبان، وما يحسب في القيمة والفن دون غيره من أشعارهم مما يقع دونها في المتعة والجمال.

ولا ريب في أن لكل قصيدة شخصيتها وتفردها وطاقتها، لكنها تتكافأ في الحد الأدنى من الجودة ومن الشهرة. ولا ريب في أن معلقة عمرو بن كلثوم أكثر شهرة مما سواها من أشعاره على اشتهار قصائد أولئك الشعراء المذكورين قبله أو بعده، ولهم الحكم نفسه.

ففي هذا النص تجاورت مسألة اختيار القصيدة وشهرتها معاً، مما يقود إلى القول بإمكانية أن يكون التعليق سبب الشهرة أو الشهرة سبب التعليق كأن تكون الشهرة سلماً إلى التعليق، فكلا الوجهين محتمل ومعقول.

شهرة القصيدة ووسيلة الوصف:

لكل قصيدة موضوع، فهل موضوع القصيدة يرفع شأنها؟ وإن كان ذلك فلِمَ لا تشهر القصائد كلها التي تناولت الموضوع نفسه؟ ولِمَ تشهر قصيدة بموضوعها، وقد تعاقب عليه عدد من الشعراء قبل الشاعر أو بعده؟ أليس في هذا التساؤل ما يدعو إلى دراسة العلاقة بين شهرة القصيدة وإتقان أداء الوصف فيها إذا اتفق الموضوع، واختلفت الوسائل في التعبير عنه؟! هذه التساؤلات تظهر عند مواجهة نص يجمع بين شهرة القصيدة وموضوعٍ تناولته كصفة الحرب، إذ قال ابن الأثير(– 630هـ):

((وكان لقيط الإيادي معهم، فكتب إلى إياد1 [من الوافر]:

سلامٌ في الصَّحِيفةِ من لَقِيطٍ إلى مَن بالجَزيرَةِ مِنْ إيادِ

بأنّ اللّيثَ كِسرى قَدْ أَتَاكُمْ فلا يَشْغَلْكُمُ سُوقُ النّقادِ

أَتَاكُمْ مِنهُمُ سَبعُونَ أَلْفاً يَزُجُّونَ الكتائبَ كالجَرادِ

1 – ديوان لقيط بن يعمر: 35، النّقاد: صغار الغنم.

فلم يقبلوا منه وداموا على الغارة، فكتب إليهم أيضاً1[من البسيط]:

أبلـــغ إيـــاداً وطـــوّل فـــي ســـراتِهِمُ إنّي أرى الرّأيَ إن لم أُعصَ قد نَصَعا

وهي قصيدة مشهورة من أجود ما قيل في صفة الحرب.))2

صحيح أن موضوع الحرب جزء من القصيدة لكنه ليس سبباً في جودتها بل طريقة الوصف أو إتقانه كان سبباً في جودة المعاني المقولة في الحرب، وكذلك مقدار لصوق الصفة بالموصوف، فكأنهما شيء واحد. ولا يعد الموضوع سبباً كافياً دون شرط جودة أداء معاني الحرب التي تناولها الشعر في بث روح الوثوب والرغبة في مغالبة الفُرس الذين كانوا يكيدون لقومه قبيل ذي قار، وجعل الشهرة والجودة من نصيب القصيدة العينية على أن الدالية لا تقل قيمة من جهة أنها موثبة من الموثِّبات لما فيها من غنائية الوافر بيد أن البسيط الذي جاءت عليه العينية ملك من ملوك الشعر. فاختياره العينية أبلغ في جدية الأمر وسطوته من الوافر، وكلاهما يراد به أن يُطرِبَ القومَ للحرب، ويَخِفُّوا لها، ولا يقعدوا دون أعدائهم، فكانت القصيدة مشهورة بسبب جودتها التي تجلت في طريقة وصف الشاعر للحرب والإعداد لها عند الخصوم، وحزمهم في الأمر وتشاغل قومه بأنفسهم عن عدوهم.

شهرة القصيدة وفنها:

لا ريب في أن بين موضوع القصيدة وفنها مسافةً، فإن كان موضوعها الفخر بالنفس أو القبيلة أو القوم فإن فن الفخر يكمن في موجبات اختيار الألفاظ الدالة على المعاني التي يقتضيها الفن اختياراً دون سواها من ألفاظ العرب، وأن يتخير لها البحر، وأن يسكبها فيه إلى حد التكيف بترتيبها ترتيباً يوافق العربية لغة، والأوزان العربية غناء أو تفكراً؛ يدلك على ذلك أن النابغة عاب على حسان بن ثابت اختيار لفظ الجفنات

1 – ديوان لقيط بن يعمر: 39

2 – الكامل في التاريخ: 1/ 359

لدلالته على عدد قليل من الجفان1، والفخر يقتضي كثرتها لا قلتها، فقصر عن الموضوع (معنى الفخر) من جهة موجبات فن الفخر المتصلة بالاختيار وفنون أداء المعاني بمقتضى الطبيعة الفنية لا بمقتضى واقعية الموضوع أو حقيقته بل بما يوجبه الفن نفسه.

جُعلَ هذا الكلام مدخلاً لقول لسان الدين الخطيب(– 776هـ) في كلامه على الشاعر أبي إسحاق بن فرقد (–572هـ): ((مما ينقل عنه قصيدة شهيرة في رثاء الأندلس[من المتقارب]:

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فِطَنْ فيبكي بدمعٍ معين هَتِنْ

جزيرة أندلسٍ حسرةً أَلا غالبٌ من حقود الزَّمَنْ

وينـدب أطلالها آسفاً ويرثى من الشعر[2] ما قَدْ وهَنْ

ويبكي الأيامى ويبكي اليتامى ويحكي الحَمامَ ذواتِ الشَّجَنْ

ويشكو إلى الله شكوى شَجٍ ويدعوه في السر ثم العَلَنْ

وكانت رباطاً لأهل التقى فعادتْ مناطاً لأهل الوثَنْ

وكانت معاذاً لأهل التقى فصارت ملاذاً لمَن لمْ يَدِنْ

وكانت شجى في حُلوق العِدا فأضحى لهم مالها مُحتَجَنْ

وهي طويلة، ولديَّ خلافٌ فيمن أفرط في استحسانها. وشعره عندي وسط))[3]

1 – انظر: المصون في الأدب: 3

2 – هكذا وردت (الشِّعْرِ) ولو قال: من العظم ما قد وهن) كان أحسن في الإشارة إلى الآية: (إني وهن العظم مني)

3 – الإحاطة في أخبار غرناطة: 366/1

فهي قصيدة مشهورة في الناس لفن رثاء الأندلس على ما قيل في الأندلس من رثاء، والمؤلف يرى في فنها حسناً لكن لا يفرط بإيغالها في فن الرثاء، فهي عنده مما يستحسن لكنها لا تعلو في حسنها على أترابها في فن رثاء الأندلس. ويجعل سبب الاحتراس يعود إلى حكمه على مجمل شعرية الشاعر في أنها متوسطة لا عالية ولا منخفضة، ويجعل ذلك قيداً على حكمه النقدي المخالف لغيره من أهل العلم في رؤيتهم لها. ومذهبه ليس مذهب العلماء فعنترة وطرفة وعمرو بن كلثوم ليسوا من طبقة امرئ القيس ولا النابغة ولا الأعشى ولا زهير لكن العلماء تخيروا لهم معلقاتهم المشهورة، مما يؤكد مذهب ناقدنا الخاص بفكرة أن القصائد ليس فيها شاذ ولا نادر يتخطى مستوى الشاعر عامة، والواقع يرد الرؤى النظرية عند تعارضها.

المهم أن حسنها في صنعة فن رثاء الأندلس كان سبباً في شهرتها عند من قدمه، إضافة إلى تناولها موضوع الأندلس، ولو أن الشهرة لم تكتب لكل قصيدة تناولت الأندلس بالرثاء. فحسن التأتي للموضوع جزء من فنية أداء الرثاء، وهو مقدم في شهرتها على غيره من الأسباب الخفية أو المسكوت عنها.

ومما جمع الشهرة والجودة وفنية الرثاء قصيدة الشمردل بن شريك(–80هـ) [من الطويل]التي منها1:

((وكنت أعيرُ الدمعَ قبلك مَن بكى فأنت على من فات قبلك شاغلُه

سقى جَدَثاً أعرافُ غَمْرَةَ دونه ببيشةَ ديماتُ الرَّبيعِ ووابلُهْ

وما بيَ حُبُّ الأرض إلا جوارَها صداه وقولٌ ظنَّ أنِّيَ قائلُهْ

الشعر للشمردل بن شريك من قصيدةٍ طويلةٍ مشهورةٍ يرثي بها أخاه))2 فقد حدد

1 – انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب: 3/ 355

2 – الأغاني: 13/ 350

فنها(الرثاء) وموضوعها(أخاه).

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى سابقاً إلى هذه القصيدة بقوله: ((وهي من مختار المراثي[1] وجيد شعره:

لعمري لَئن غالت أخي دارُ فرقةٍ وآبَ إلينا سيفُهُ ورواحله))2

فالقصيدة موصوفة بالطول والطول مظنة صعوبة الحفظ لكنها لخفتها وفنية أدائها سهل حفظها واشتد سهمها في الشهرة، وهي في الرثاء، وهي من متخير قصائد الرثاء، فهي تتخير في جياد المراثي، وهي من جيد أشعاره أي أن لها أشباهاً ونظائر تُحْملُ عليها.

الشهرة والافتخار:

ما قيل في علاقة فن الرثاء بموضوع الرثاء، وعلاقة كل منها بشهرة القصيدة يمكن أن يقال في فن الفخر، ولعل الأمر في الفخر أوضح، يدل على ذلك قول أبي هلال العسكري(– 395هـ): ((واحتج السموءل لقلة العدد فأحسن3[من الطويل]:

تُعيرُنـــا أنـــا قليـــلٌ عَديـــدنا فقلـــت لهـــا إن الكـــرامَ قليـــلُ

ومـــا قـــلَّ مـــن كانـــت بقايـــاه مِثلنـــا شـــبابٌ تســـامى للعـــلا وكهـــولُ

ومـــا ضَـــرَّنا أنـــا قليـــلٌ وجارُنـــا عزيـــزٌ وجـــارُ الأكثـــرين ذليـــلُ

وهذه قصيدة في الافتخار ليس لها نظير، وإنما تركت إيرادها كلها لشهرتها.))4

وعلق عليها ابن رشيق بقوله: ((ومن أجود قصيدة افتخر فيها شاعر قصيدة السموءل بن

1 – انظر: كتاب الأمالي فيها مراث وأشعار أخرى وأخبار ولغة: 31

2 – الأغاني: 13/ 353

3 – ديوان السموءل: 10

4 – ديوان المعاني: 83/1

عادياء اليهودي فإنها جمعت ضروب الممادح وأنواع المفاخر، وهي مشهورة.))1

معلوم أن فن الفخر يقتضي الشاعرَ أن يبلغ بالصفة منتهاها، فالعرب تفخر بكثرة العدد كما يبدو في خبر خيمة النابغة وحسان والأعشى والخنساء المومأ إليه آنفاً، ولما كان السموءل من قبيلة قليلة العدد، والعرب تعير بقلة العدد؛ لأنها دالة الضعف والاستكانة للأقوياء، جعل عقلية العرب ظاهرة في ثلبهم بهذه القلة، فاحتج لها أنهم قلة لكنها محل ثناء ومدح كالكرام في العرب قلة، ولم يعبهم أحد بقلتهم، ولم ينظر إليهم من جهة العدد بل نظروا إليهم من جهة الصفة في الفعل الاجتماعي.

واحتج لقلة العدد بعلو الهمة عند شبابهم وكهولهم، وعلو الهمة تعد تعويضاً من كثرة العدد، وهم فوق ذلك يجعلون من طلب جوارهم عزيزاً بمنعتهم له، وجار غيرهم ممن يكثر عددهم ذليل من خذلان جيرانه له. فجمع لقومه الكرم وعلو الهمة وحماية الجار بشجاعتهم. فكان فخراً قائماً على الإيحاء بكرمهم دون التصريح والتبجح، وكان يفخر بعلو همتهم بتسامي قومه شباباً وكهولاً للعلى، وكنى بعزة جارهم عن منعتهم وشجاعتهم، فاحتج لقلة العدد بما تقدم وأثبت قيماً من قيم العرب التي تعتز بها.

فهي قصيدة موغلة في فن الفخر كتفردها في طريقة الاحتجاج لقلة العدد، وترك المؤلف إثباتها لشهرتها في الناس ومعرفتهم بها على تنازع في نسبتها إليه2. وجعلها ابن رشيق من أجود قصائد الفخر لطريقتها في عرض ممادح القوم لأنفسهم، ونَوَّعَ مفاخرهم (المعنوية من شيم العرب) في قصيدته. فالقصيدة مشهورة لقوة الاحتجاج وتنوع معاني المدح، وتوجيهها للفخر والفن في الفخر في إظهار معانيه.

شهرة القصيدة وموضوعها:

لعل الرؤية العامة لا توجب للموضوع قيمة في رفعة القصيدة أو دنوها لكن

1 – العمدة في صناعة الشعر ونقده: 830/2

2 – انظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد(32) الجزء: (3) مقال الباحث الشاعر خليل مردم بك: 409–411

الموضوع قد يعين على شهرة القصيدة مهما يكن مستوى أدائها، فماذا لو اجتمع جلال الموضوع إلى روعة الأداء الفني كما رأى ابن حجر العسقلاني في قصيدة دعبل بن علي الخزاعي في الثناء على آل البيت–رضي الله عنهم– إذ قال في دعبل: ((وله القصيدة المشهورة المطولة في أهل البيت التي أولها1[من الطويل]:

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ عَن تِلاوةٍ وَمَنزِلُ وَحيٍ مُقفِرُ العَرَصَاتِ))2

فلها الشهرة على طولها، وبلغت سبعة وخمسين بيتاً، وما أظنها طويلة إذا قيست بمعلقات العرب الطوال، ولا هي طويلة إذا قيست بمطولات الهاشميات للكميت بن زيد، لكنها إذا قيست بما دونها في عدد الأبيات فهي طويلة. وموضوعها في آل البيت، مما جعلها تسير في الناس مستجيبة لعاطفة الحب وسردية التاريخ، وتثبيت المظلومية لآل البيت، وهي لذوي الهوى السياسي أهوى. فكأن شهرتها تعود إلى موضوعها أكثر من طولها. وكأن الحب والتاريخ والفن من جواذب المتلقين في القصيدة على أنها في بعض أبياتها لا تعدو النظم، ويمكن إدراك ذلك من مطلعها حيث تسرد أسماء الأماكن، وأسماء الرجال مما يجوف الشعر من روحه لمن ليس له معرفة بدلالات تلك الأماكن، ولا مزايا أولئك الرجال. وينتقل به إلى عالم الجغرافية، كما ينتقل بالشعر إلى التاريخ بذكر أسماء ذوي الأنساب، فيدنو بالشعر من النظم وما يحمل روح النثر الأدبي.

فلا ريب في أن موضوعها سعى بها بين الناس، وأولع بها بعضهم فأضاف إليها تسعين بيتاً3، فكأن القصيدة في نظرهم منقوصة تحتاج إلى إتمام. لكنها سمت بموضوعها واقتدار مبدعها في فنها.

1 – شعر دعبل بن علي الخزاعي(148–246هـ): 78

2 – لسان الميزان: 431/2

3 – انظر: شعر دعبل بن علي الخزاعي: 78

الشهرة وتعدد المعنى:

تعدد المعنى –وهو واحد– مفهوم يحتاج إلى شيء من كد الذهن؛ فقد ارتبط مفهوم الشهرة بمفهوم تعدد المعنى في ذكر قصيدة أحمد بن محمد بن دراج القسطلي(–421هـ) وذلك في قول الحُميدي(–488هـ): ((وفي ذلك المجلس بين يدي المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر قال القصيدة المشهورة التي أولها1[من البسيط]:

حَسبِي رِضَاكَ مِنَ الدَّهر الذي عَتَبَا وَعَطْفُ نُعماكَ للحظ الذي انقَلَبَا

وهي طويلة حسنة عَدَّدَ فيها المعنى الذي استحضر من أجله، وتكذيب الدعوى التي قذف بها؛ ومنها2:

ولستُ أولَ من أعيتْ بدائعُهُ فاستدعت القولَ مِمَّنْ ظَنَّ أو حَسِبَا

إن امرأ القيس في بعضٍ لَمُتَّهَمٌ وفي يديه لواءُ الشِّعْرِ (إن ركبا)

والشعر قد أَسَرَ الأعشى وقَيَّدَهُ دهراً وقد قيل: والأعشى إذا شربا))3

فهذه القصيدة جمعت الشهرة والطول والحسن فيها متجلٍ في تعدد المعنى، والعبرة في تعدد المعنى الموضوع أصلاً للحسن، وتحدياً للطول؛ فإن الشاعر إذا طال نفسه في القصيدة تغيرت درجات حسنها، إما لانقطاع متنه في الإحسان، وإما لمعاودة المعنى الواحد مراراً في النص، وإما لركوب معاني سابقيه من غير تجديدٍ في طرق إبرازها. لكن هذا التعبير محمول على قوله تعالى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾4 فجعل النعمة وهي مفرد قابلة للتعدد مع أنها في ظاهر أمرها واحدة؛ لما يتعلق بها من آلة أو أجهزة

1 – ديوان ابن درَّاج القسطلي(–421هـ): 308

2 – ديوان ابن دراج القسطلي: 309

3 – جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس: 178/1

4 – سورة النحل: 18

كنعمة الإبصار فآلتها العين، والعين فيها أعصاب وشحمة بيضاء، وحدقة العين على تعدد ألوانها، وجملة عصبية تربط بينها، وآلية انعكاس الأجسام على العين...الخ مما لا يحصى من النعم الكامنة لتهيئة هذه النعمة المُمَكِّنةِ لها في الظهور، وكذلك المعنى الواحد من معاني القصيدة.

فالمعنى الظاهر مبني على معان أخرى خلفه اجتمعت للشاعر في بيت واحد كمطلع القصيدة: (حسبي رضاك..) فقد بنى المعنى في البيت أن رضى الممدوح جاء في وقت عتاب الدهر، وكرمه جاء في وقت انقلاب الحظ وتغيره، فارتبط معنى الرضى بالجود كما ارتبط معنى العتاب بانقلاب الحظ، وقد تتبعت أصول المعنى الشعري قبله لإدراك افتتان الشاعر في بناء كل معنى من معانيه على معان أخر سبق إليها شعراء آخرون، فأقام المعنى في الشطر الأول على قول قيس بن الخطيم1 [من المنسرح]:

هِندٌ تَجَنّى الذنوبَ عاتبةً يا حَبَّ[2] بالعاتب الذي عتبا

وعلى قول الخبز أرزي3(–317هـ)[من الكامل]:

خَّداكَ تُفَّاحي وَريقُكَ راحي حسبي ويومُ رضاك يومُ فلاحي

ففي بيت قيس كانت هند عاتبة، وعتبها محبب إليه، لكن القسطلي كان دهره ومحبوبه راضيين، فبنى معناه على المخالفة له. وفي كلام الخبز أرزي كان رضى المحبوب حسبه فوافقه القسطلي ورضي برضاه على عتب الدهر، فبنى معنى الشطر الأول من بيته على بيتين لشاعرين سبقاه، وافتن في تقديم الرضى المؤخر عند الخبز أرزي، وأخر العتاب في الشطر الأول، وقد امتد بعض بيته على بيت قيس بن الخطيم صدراً وعجزاً بعد أن أسند العتاب للدهر لا لمن يحب.

1 – ديوان قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره: 114

2 – أصلها (يا حبذا) فاجتزأ ببعض الكلمة.

3 – ديوان الخبزأرزي: 120

واتكأ معناه في عجز بيته على قول أبي نواس1(-198هـ) [من مخلع البسيط]:

المَالُ يَفنى على الليالي وَجُودُ كَفَّيكَ غيرُ فانِ

وربما اتكأ على قول معاصره مهيار الديلمي2(-428هـ) [من الرجز]:

ما أنا من صِبغة أيامكم ولا الذي إن قلبوه انقلبا

فقد جعل عطف النعمة من الممدوح تعويضاً من انقلاب حظه في سياق تقلبات الدهر(الأيام والليالي والوقائع) وكأنه يأخذ جهة التطبيق لقول أبي نواس بفناء المال على مرور الليالي، وثبات جود كفيه، فكان عطف النعمة على النعمة مبنياً على جود كفي ممدوح أبي نواس، وكأن مال الممدوح لا ينفد، وعطاء الدهر ينفد. وربما كان انقلاب الدهر عليه مبنياً على قول مهيار الديلمي الذي تبرأ من صفة الدهر(الانقلاب) وعبر عنه بالأيام كما عبر أبو نواس عنه بالليالي على طريقة المجاز المرسل في التعبير عن الدهر ببعضه، لكن القسطلي جعل الانقلاب لحظِّه لا للدهر، فاتكأ معناه على معان أخر، وحول التفرد على إضمار قواعد بناء المعنى لديه.

وفي الأبيات الباقية تجده توسد خبراً نقدياً يقول: ((قيلَ لدَغفلٍ: مَنْ أشعرُ الناس؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهبَ، والأعشى إذا طرب، وزهير إذا رغب))3

فذكر من هؤلاء الشعراء امرأ القيس في حال توغلت شعرية شعره في الصيد والفروسية، والأعشى إذا طرب للخمرة أو المرأة. وفي ذكرهما إشارات إلى فكرة التكافؤ بين شعراء الطبقة إذا تفوق كل منهما في ضرب من فنون الشعر.

فالتكافؤ في الطاقة الإبداعية؛ كأن كلاً منهما بلغ مبلغاً في فنه لم يبلغه الآخر في هذا الفن بل بلغه في فن آخر. واعتدل كل منهما على قمة ذلك الفن من غير أن يستولي

1 – ديوان أبي نواس: 587

2 – ديوان مهيار الديلمي: 1/ 122

3 – البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي: 85/3

عليها وحده. وأشار إلى حديث ضعيف النسبة إلى النبي–صلى الله عليه وسلم– يقول في امرئ القيس: ((امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار))1

فعبر عن ذلك بقوله: (وفي يديه لواءُ الشِّعْرِ إن ركبا) فهذا معنى التفوق عَبَّرَ عنه دالاً على مصادره من معان كثيرة. فجعل المعنى الواحد يقف على رصيد معرفي متراكماً بعضه على بعض، وجعل معناه قابلاً للتعدد. وجعل هذا الأمر سبباً من أسباب شهرته.

الشهرة والإبداع:

الإبداع اختراع لا على مثال سبق2 فالإبداع يُحدِثُ بالخلق الجديد غرابة ودهشة في النفس، وتفرداً يبرز القصيدة بافتراقها أكثر مما يبرزها باتفاقها، وإحداث الإبداع في الشعر أمر قليل الوجود لطول عمر الأشعار عند العرب وكثرة قائليها في مجتمعاتهم العربية على مر العصور، وكثرة الضوابط؛ لذلك تجد نصاً عن ابن الظهير الإربلي(602–677هـ) يقول فيه : ((له القصائد الفائقة منها القصيدة المشهورة التي عمل ابن نباته على وزنها3 أبدع فيها إبداعا عجيبا أولها[من البسيط]:

مضت لنا بالحمى والبانِ أوقاتُ صَفَتْ وصُفَّتْ لنا فيها المسراتُ

أَيَّامَ نَخْتالُ في ثَوبِ الصِّبا مَرَحاً وللصِّبا وزمانِ اللهوِ لَذَّاتُ

وللأماني إشاراتٌ تروِّحُني يا حبذا حبذا تلك الإشاراتُ

أحبابَنا هَل لأوقاتٍ لنا سَلَفَتْ بِقُربِكُمْ والتئامِ الشَّملِ عَوداتُ

وهل نعود كما كُنَّا ويجمعنا دارٌ وتُقضَى لنا مِنكمْ لُباناتُ

1 – كنز العمال في السنن والأقوال والأفعال: 153/12، ح: 34445، وانظر: كنز العمال: 154/12، ح: 34449

2 – انظر: لسان العرب: 8/ 6(بدع)

3 – انظر: ديوان ابن نباتة المصري: 67

بِنـــتُمْ فـــلا البـــانُ مَيَّـــالٌ يُزَنِّحُـــهُ مَـرُّ النَّسِـيمِ ولا الرَّوضَـاتُ رَوضَـاتُ

وقـــد قطعنـــا لُيَـــيْلاتٍ بِقُـــرْبِكُمُ ضَـــلَّتْ فللـــه هاتيـــك اللُّيَـــيْلاتُ

ورُبَّ دَيـــرٍ طَرَقْنـــا بابَـــهُ سَـــحَراً وللنـــواقيسِ فـــي أعـــلاهُ أصـــواتُ))1

والإبداع في رسم صور جديدة في نسج الأبيات (نظمها) من ذلك(مضت لنا بالحمى والبان أوقات) لم يسبق إليها على أنها صورة خبرية تستمد من الذكرى بنيتها، ومن الحنين حرارتها، وذكر الأوقات، وأراد الأحوال التابعة لها، وجعلها نكرة(أوقات) ليبدي تعددها، وعظم شأنها في نفسها، واشتداد شوقه إليها، وجعل الفعل الماضي(مضت) أول كلامه، وعلّق به(لنا) وأخَّر الأوقات وهي فاعل من حقها أن تلي الفعل، تشويقاً لمعرفة ذاك الذي كان في الحمى والبان من أحوال وعاؤها الأوقات، فقدم الحمى والبان بعضه ليبدي تقدمها وثبوتها في الحس أشد من ثبوت الأوقات المستمرة، يوضح ذلك الشطر الثاني من البيت إذ يصف تلك الأوقات بالصفاء، ويصف المسرات الحادثة فيها بالصفاء أيضاً.

فالإبداع يشتمل البيت كله فكأن البيت أحدث بالحسن مزية على تناول المعنى نفسه يدركها المتلقي بتذوق تركيب المعاني والتعبير عنها. ومثل ذلك يقال في الأيام التي يختال فيها، واقتران تلك الأيام بالشباب واللهو والبحث عن الملذات، كل ذلك مشفوع بالخيلاء بغية الوصول إلى مطالب تلك الأحوال، ولا تكاد تجد تقليداً في الصور إلا قليلاً من ذلك صورة ثوب الصبا التي سبقه إليها الشعراء من قبل كالعجاج القائل2[من الرجز]:

وَإِذ زَمـــــــانُ النـــــــاسِ دَغفَلِـــــــيُّ

1 – الجواهر المضية في طبقات الحنفية: 492/4

2 – ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب وشرحه: 487/1

بِالـــــــدارِ إِذ ثَـــــوبُ الصِـــــبا يَـــــدِيُّ

على أن الشاعر لون ذلك الثوب بالمرح فجوده وأخرجه من باب الشركة العامة إلى بدعة خاصة به. وحسبك بالقليل الدال على الكثير، مما يؤكد جهة واحدة من جهات الإبداع في هذه القصيدة، وهي على قصرها حققت شهرة بفضل إبداع قائلها فيها، وصدقه في تناول معانيها، وافتنانه في بناء صورها ومناحيها. فإن كان فيها ما سبق إليه فإنه في مراجعته تفوق على سابقه، فكانت قصيدته من قصائده الفائقات على أمثالهن مما وقع في أشعار السابقين. مما يؤكد أن ثمة علاقة بين شهرة القصيدة وإبداع المبدع فيها زيادة على من تقدم في بابها أو ابتداعاً يمكن أن يتبعه فيه مَنْ يأتي بعده..

الشهرة والعذوبة والسلاسة:

أن يكون للقصيدة عذوبة فتشبيه لها بالشراب بل الماء إذ هناك ماء عذب وماء ملح أجاج، وماء حلو طعمه كعصير التفاح السكري، وماء مرّ كالدواء العلقم، فلكل قصيدة طعم يعبر عن طبيعة التجربة الإبداعية التي أودعها الشاعر قصيدته، فحملت القصيدة طعمها إلى المتلقي في طور تمثل التجربة المحمولة بأوعية الأبنية الشعرية. وأن يكون في تلقي القصيدة ثمة سلاسة (إحداهما في المبنى، والأخرى في المعنى معاً) فذلك يعنى اجتنابها ما يعكر صفوها(طلاقة نظمها، ولا تتحقق طلاقة النظم من غير طلاقة المعنى) أو يغير طعمها أو يعرقل حركة معانيها في نظم مبانيها، فهي تجري في النفس كما يجري الشراب في الحلق، وهي سهلة الانقياد إلى مصنع الغذاء والمتعة في العقل والنفس، وهذا اليسر منبعه من طبيعة بناء النص واجتنابه ما يعرقل حركة سيره كالتعقيد والغموض ...وهذه السمات تسهل طريقها إلى المتلقي، وتجذب القصيدة بها الرواة الذين يعرضونها على الناس، فيجدون فيها من العذوبة والسلاسة ما يجعلها أثيرة لديهم مقدمة في الحفظ على غيرها، يدل على ذلك ما قاله ابن بسام الشنتريني(– 542هـ) في قصيدة أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني: ((وله القصيدة المشهورة في ابن حمود يتداول

القوَّالون أكثرَ أبياتها، لعذوبة ألفاظِها وسلاستِها، وهي التي أولها[1] [من الرمل]:

ألبـــــرقٍ لائـــــحٍ مـــــن أنـــــدرينْ ذَرَّفَـــتْ عينـــاك بالمـــاء المعـــينْ

لعبـــــتْ أســـــيافه عاريـــــةً كمخـــــاريقَ بأيـــــدي اللاعبـــــينْ

ولصـــوتِ الرعـــدِ زجـــرٌ وحنـــين ولقلبـــــي زفـــــرات وأنـــــينْ))[2]

والحق أن عذوبة القصيدة تنبع من طرق أداء معانيها متجاذبة بحلاوة معانيها فأعطتها الجودة (غزارة المعنى) ومنحتها حسن الصنعة أسباب الجودة والعذوبة جزء منها، فتقدمت لحسن صنعة المباني. ونظمها كله جزء من الصنعة(للمبنى والمعنى)، فبذلك يجد لها المتلقي طعماً في نفسه كعذوبة الماء الزلال عند الظمآن، والسلاسة تتبع من حسن إيقاعها في مواقعها من النظم الشعري واللغوي من غير ما تنافرٍ بينها وبين جيرانها، ولا تقاطع بينها وبين فضائها الإيقاعي للأصوات والمعاني كما حسنت المجاورة في المباني.

فالعذوبة في المعاني والسلاسة في تسلسل المباني وفق ترتيبها في النفس وما يوجبه الفن الشعر من مواضع يجعل العذوبة تمتزج بالسلاسة بل هي ثمرة السلاسة على تباين ما بين اللفظين من الدلالة. وبذلك تشيع القصيدة في الناس وتشهر في مجالس الخواص كما تشهر بين الناس.

الشهرة واليتيمتان:

ثمة قصائد شهرت عند العرب باسم اليتيمة، واليتيم في الأشياء –دون الأحياء–: ما لا نظير له من جهة ما من جهات استحسانه عند العرب يدل على ذلك الخبر الآتي: قول أبي الفرج الأصفهاني: ((أخبرني محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثنا محمد ابن

1 – الحلة السيراء: 2/ 28

2 – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 791/4

إسحاق البغوي، قال: حدثنا أبو نصر صاحب الأصمعي أنه قرأ شعر سويد بن أبي كاهل على الأصمعي، فلما قرأ قصيدته1[من الرمل]:

بَســـطَتْ رَابِعَـــةُ الحبـــلَ لَنـــا فَوَصَـــلنا الحَبـــلَ منهـــا مـــا اتَّسَـــعْ

فضلها الأصمعي، وقال: كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها. ثم قال الأصمعي: حدثني عيسى بن عمر أنها كانت في الجاهلية تسمى: اليتيمة))2

فالشهرة ضمنية محمولة في لفظ (العرب) لم يُنَص عليها لكنها تكاد تكون ظاهرة في قوله: (كانت في الجاهلية تسمى اليتيمة) أي كانت العرب تسميها بهذا الاسم؛ فكأنها معروفة لكل العرب في مبالغة لتوكيد شهرتها.

وثمة يتيمة أخرى سميت يتيمة جاء خبرها عند ابن أبي عون في تعليقه على قصيدة النابغة3[من الكامل]:

سَـقَطَ النَّصِـيفُ وَلَـمْ تُـرِدْ إِسـقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْـــــهُ وَاتَّقَتْنـــــا بِاليَـــــدِ

بقوله: ((وفي هذا المعنى ما ذكر في القصيدة التي لم ينسج على منوالها المشهورة بأنها يتيمة وقيل: هي لزوبعة المُلحى[4] التي أولها[5][من الكامل]:

هـــــل بـــــالطلولِ لســـــائلٍ ردُّ أم هـــــل لهـــــا بـــــتكلمٍ عهـــــدُ

إلى أن قال[6]:

1 – المفضليات: 191

2 – الأغاني: 13/ 102

3 – ديوان النابغة الذبياني: 34

4 – نبهني أ.د.شفيق البيطار–حفظه الله– إلى شهرة نسبتها إلى دوقلة المنبجي فلعل تحريفاً أصاب المنبجي، وتحقيق نسبتها يحتاج إلى مقال ليس هذا موضعه.

5 – القصيدة اليتيمة، المنسوبة لدوقلة المنبجي: 27، وعدد أبياتها ستون بيتاً.

6 – ليس البيتان في القصيدة اليتيمة، لعله لم يذكرهما القاضي لذكر العورات..

ولهـــــــا ...[1] رابٍ مجســـــــتهُ ضَـــيِّقٌ مســـالكهُ بـــه وَقـــدُ

وإذا طعنـــتَ طعنـــتَ فـــي لبـــدٍ وإذا نزعـــتَ يكـــادُ ينســـدُّ))2

فهي يتيمة لأنه لم ينسج على منوالها بهذا الوشي والزينة والسهولة واليسر، والتعبير عن المعاني الفاحشة بنسج فني جميل في بناء الصور والمشاهد، وطلاقة في تردد الشعر على اللسان، وانتظام معانيها كما لو كانت متسلسلة في حركة حوادثها كانسجام مبانيها، على أنها بلغت ستين بيتاً والقصيدتان من الكامل لكل منهما وحرف الدال روي لهما لكن مجرى اليتيمة الضم، وهو أخف على اللسان من الكسر، ولو كان كل منهما بعض حرف من حروف المد، ووقعها في الأذن والنفس أمكن من وقع روي النابغة..وعلاقة الوزن بالموضوع والانفعال والقافية موضوع تذوق يختلف فيه المقال من حال إلى حال.

فالقصيدتان كل منهما يتيمة من جهة؛ فقصيدة سويد يتيمة من جهة حكمها، وقصيد المنبجي–على اختلاف العلماء في قائلها– يتيمة من جهة نسجها في لغتها وصورها ومشاهدها وتلاحقها في معانيها ومبانيها. مما يعنى أن من أسباب الشهرة سمةَ تَفَرُّدِ القصيدةِ في جهة من جهات بنائها، مما يجعل ذلك سبباً من أسباب شهرتها.

مما تقدم يتبين أن القصيدة تشهر في الناس لأمرٍ يكون في مزايا متنها صفة جمالية مستحبة في مبناها أو معناها أو صورها أو مشاهدها أو أفيائها في مخيلة متلقيها كما كانت في خفة مبانيها على اللسان أو وقع تفعيلها في النفس قبل قرع الأسماع، أو متعلقاً بمناسبتها أو موضوعها، أو غرابتها في وقتها مما يجعل الدهشة مما جاء فيها عاملاً من عوامل سيرورتها وشهرتها.

1 – تصريح بسوأة المرأة

2 – كتاب التشبيهات: 97

المصادر والمراجع

1. الإحاطة في أخبار غرناطة، لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب(–776هـ) بتحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة–مكتبة الخانجي،ط2، 1393هـ–1973م
2. كتاب الاختيارين المفضليات والأصمعيات، صنعة الأخفش الأصغر(235–315هـ) تحقيق: د.فخر الدين قباوة، بيروت–دار الفكر المعاصر، ودمشق–دار الفكر[د.ت]
3. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، بيروت–دار إحياء التراث العربي[طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب]
4. الأمالي فيها مراث وأشعار أخرى وأخبار ولغة، عن أبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي(–310هـ) بيروت–عالم الكتب، القاهرة–مكتبة المتنبي، 1369هـ
5. البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: د.وداد القاضي، بيروت–دار صادر، ط1، 1408هـ–1988م
6. تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت–مطبعة حكومة الكويت، 1393هـ–1973م
7. التشبيهات، لابن أبي عون، عني بتصحيحه: عبد المعين خان، جامعة كمبرج، 1369هـ–1950م
8. جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس، تأليف الحميدي أبي عبد الله محمد بن أبي نصر(420–488هـ) تحقيق: إبراهيم الابياري، بيروت–دار الكتاب اللبناني، ط2، 1403هـ – 1983م
9. الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، لأبي الفرج معافى بن زكريا النهرواني الجريري(303–390هـ) تحقيق: د.محمد مرسي الخولي، بيروت–عالم الكتب، ط1، 1403هـ–1983م

10. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لمحيى الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم أبي الوفاء القرشي الحنفي(696-775هـ) تحقيق: د.عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة- هجر للطباعة والنشر، ط2، 1413هـ-1993م
11. الحلة السيراء، لابن الأبار أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي(595-658هـ) تحقيق: د.حسين مؤنس، القاهرة - دار المعارف، ط2، 1985م
12. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، بيروت-دار صادر، [د.ت]
13. ديوان الخبزأرزي، تحقيق الشيخ محمد حسون آل ياسين، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول المجلد الأربعون، 1409هـ-1989م
14. ديوان ابن درَّاج القسطلي(-421هـ) حققه: د.محمود علي مكي، بيروت ودمشق- المكتب الإسلامي، ط2، 1389هـ
15. ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي(-117هـ) شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق: د.عبد القدوس أبو صالح، بيروت- مؤسسة الإيمان، ط2، 1402هـ- 1982م
16. ديوان السموءل، صنعة أبي عبد الله نفطويه، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، بغداد-مطبعة المعارف، 1374هـ-1955م
17. ديوان عمرو بن كلثوم، صنعة د. علي أبو زيد، دمشق-مكتبة سعد الدين، ط1، 1412هـ-1991م
18. ديوان عنترة، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، دمشق-المكتب الإسلامي، 1964م
19. ديوان فتح الله بن النحاس، تحقيق وتقديم د.محمد العيد الخطراوي، المدينة المنورة،-مكتبة دار التراث، ط1، 1412هـ- 1991م
20. ديوان قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره، تحقيق: ناصر الدين الأسد،

القاهرة–مكتبة دار العروبة، 1381هـ–1962م
21. ديوان لقيط بن يعمر، حققه د.عبد المعين خان، بيروت–مؤسسة الرسالة، 1408هـ–1987م
22. ديوان المعاني، للإمام أبي هلال العسكري، بيروت–دار الجيل، [د.ت]
23. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، بيروت–عالم الكتب، [د.ت]
24. ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب وشرحه، تحقيق: د.عبد الحفيظ السطلي، دمشق–مكتبة أطلس، 1971م
25. ديوان مهيار الديلمي، القاهرة–دار الكتب المصرية، 1970م
26. ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت الإمام أبي يوسف يعقوب بن إسحاق (186–244هـ) تحقيق: د.شكري فيصل، دمشق–دار الفكر، 1388هـ –1968م
27. ديوان ابن نباتة المصري، للشيخ جمال الدين بن نباتة المصري(–668هـ، بيروت– دار إحياء التراث العربي، [د.ت]
28. ديوان أبي نواس، شرحه وضبط نصوصه د.عمر فاروق الطباع، بيروت–دار الأرقم، ط1، 1418هـ–1998م
29. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (–542هـ) تحقيق: د.إحسان عباس، بيروت–دار الثقافة، 1417هـ–1997م
30. شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي(–421هـ) نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت– دار الجيل، ط1، 1411هـ–1991م
31. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة–دار المعارف بمصر، ط2، 1969م
32. شرح القصائد العشر، صنعة الخطيب التبريزي، حلب–دار الأصمعي، ط2، 1393هـ–1973م

33. شعر دعبل بن علي الخزاعي(148–246هـ) تحقيق د.عبد الكريم الأشتر، دمشق–مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط2، 1403هـ–1983م
34. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة–مطبعة المدني، [د.ت]
35. العمدة في صناعة الشعر ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني(–456هـ) تحقيق: د.النبوي عبد الواحد شعلان، القاهرة–مكتبة الخانجي، ط1، 1420هـ–2000م
36. الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر العارف بالله العلامة محيى الدين بن عربي(–628هـ) بيروت–دار صادر، [د.ت]
37. القصيدة اليتيمة، برواية القاضي علي بن المحسن التنوخي، تحقيق: د.صلاح الدين المنجد، بيروت–دار الكتاب الجديد، ط2، 1974م
38. الكامل في التاريخ، للمؤرخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد أبي عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير(555–630هـ) تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري، بيروت–دار الكتاب العربي، ط1، ط1، 1417هـ–1997م
39. كنز العمال في السنن والأقوال والأفعال، للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (–975هـ) ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حياني، وصححه ووضع فهارسه الشيخ صفوة السقا، حلب–منشورات مكتبة التراث الإسلامي، 1394هـ–1974م : 153/12، ح: 34445
40. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، بيروت–دار صادر، ط6، 1417هـ– 1997م
41. لسان الميزان، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ابن حجر العسقلاني(–852هـ) بيروت–مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،

ط2، 1390هـ–1971م
42. المؤتلف والمختلف، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، ضبطه: د.صلاح الدين الهادي، بيروت وصيدا– المكتبة العصرية، ط1، 1429هـ–2008م
43. مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة–دار المعارف، ط4، 1400هـ–1980م
44. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد(32) الجزء: (3) مقال الباحث الشاعر خليل مردم بك
45. المصون في الأدب، لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري(–382هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة حكومة الكويت– 1984م
46. المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ، نجيب محمد البهبيتي، الدار البيضاء–دار الثقافة، ط1، 1401هـ–1981م
47. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تأليف جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري(–761هـ) تحقيق: بركات يوسف هبود، بيروت–دار الأرقم، ط1، 1419هـ–1999م
48. المفضليات، محمد بن المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، القاهرة–دار المعارف بمصر، ط5، 1976م
49. منتهى الطلب من أشعار العرب، جمع محمد بن المبارك بن ميمون، تحقيق: د.محمد نبيل طريفي، بيروت–دار صادر، ط1، 1999م

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2015/3/10